بسمه تعالى

(المحاضرة الأولى)

ما هو نهج البلاغة؟

تمهيد

يُعدّ علم "المدخل" من العلوم التمهيدية الضرورية التي لا يُستغنى عنها في أي دراسة علمية رصينة، إذ يضع الطالب على العتبة الصحيحة للدخول إلى العلم، ويمنحه تصورًا كليًا عن موضوعه، وغايته، ومنهجه، وحدوده، ومن هذا المنطلق تأتي دراسة المدخل إلى نهج البلاغة، لا بقصد شرح نصوصه، بل بقصد تعريف الدارس بهذا السفر العظيم، وبيان حقيقته، وموقعه العلمي، وحدود دراسته.

أولًا: معنى "النهج" لغةً واصطلاحًا.

النهج في اللغة العربية مأخوذ من مادّة (ن هـ ج)، ويُقال: نهج الطريق، أي وضح واستبان، والنهج هو الطريق الواضح المستقيم.

وعليه فالنهج يدلّ على الوضوح والهداية وعدم الالتباس، وهذا المعنى اللغوي له دلالة عميقة عند إضافته إلى البلاغة، إذ يشير إلى أن هذا الكتاب يمثّل طريقًا واضحًا في البيان والفكر.

أما اصطلاحًا، فالنهج لا يُراد به هنا مجرد الطريق الحسي، بل المنهج الفكري والبياني الذي تتجلّى فيه رؤية الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) للعقيدة، والإنسان، والمجتمع، والحكم، والأخلاق.

ثانيًا: معنى "البلاغة" لغةً واصطلاحًا.

البلاغة في اللغة من الفعل (بلغ)، أي وصل وانتهى. ويُقال: بلغ الكلام غايته إذا أدّى المعنى بأحسن صورة.

أما في الاصطلاح، فالبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته. وهي ليست مجرد زخرفة لفظية، بل قدرة على إيصال المعنى العميق بأوجز لفظ وأدق تعبير.

ونهج البلاغة ليس كتاب بلاغة تعليمية بالمعنى الاصطلاحي المتداول في كتب البيان والبديع، بل هو نصّ بلاغي تطبيقي، تتجسّد فيه البلاغة بوصفها أداة فكر وتربية وهداية.

ثالثًا: تعريف نهج البلاغة اصطلاحًا.

نهج البلاغة هو كتاب جمعه الشريف الرضي (قدّس سره)، يضم مختارات من خطب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وكتبه ورسائله، وكلماته القصيرة (الحِكم)، وقد اختارها لما امتازت به من علوّ المعنى، وسموّ الفكرة، وبلاغة التعبير.

وعليه، فنهج البلاغة ليس كتابًا مؤلَّفًا من الإمام علي (عليه السلام) بالمعنى الاصطلاحي للتأليف، بل هو كتاب مُنتخَب من تراثه الكلامي والفكري.

رابعًا: طبيعة نهج البلاغة العلمية.

بملاحظة العنوان لكتاب (نهج البلاغة) يفهم القارئ بأنَّه كتاب أدبي وبلاغي، فهل هو كذلك؟

الجواب:

من الخطأ المنهجي حصر نهج البلاغة في بُعد واحد، كأن يُعدّ كتاب أدب فقط، أو كتاب مواعظ فحسب، بل هو نصّ متعدد الأبعاد، يجمع على سبيل المثال بين:

١- البعد العقدي والكلامي؛ يتناول أصول الدين والتوحيد والعدل الإلهي.
٢- البعد الأخلاقي والتربوي؛ يرسم معالم بناء النفس الإنسانية.
٣- البعد السياسي والاجتماعي؛ يضع قواعد الحكم العادل ونظام العلاقات المجتمعية.
٤- البعد المعرفي والفلسفي؛ يناقش قضايا الوجود والمعرفة والعقل.
٥- البعد الأدبي والبياني؛ يمثل قمة الإبداع اللغوي والبياني العربي.

ومن هنا تنشأ أهمية المدخل؛ إذ لا يصحّ التعامل مع النص دون تحديد زاوية النظر العلمية.

فلابدَّ أن يعرف الدارس لنهج البلاغة بأنَّه حاوي على تلك الأبعاد ويجب عليه أن يبحث عنها بدقة ويستخرج كل تلك الأبعاد من كلام أمير المؤمنين(عليه السلام) الذي جمعه الشريف الرضي.

فمثلاً لكي يبرز الباحث البعد العقائدي في نهج البلاغة، عليه أن يبحث عن ذلك في كلام و أقوال الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة، ومن ذلك قوله عليه السلام في أول خطبة له في (نهج البلاغة):

(الحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ، وَلاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ، ولاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الفِطَنِ ...)

فنلاحظ بشكل واضح في هذا المقطع من كلامه (عليه السلام) أنَّه يحمل بُعداً عقائدياً واضحاً، حيث يبدأ بقوله: "الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون "يعني أن كمال مدح الله تعالى مستحيل على البشر، لأن عقولنا قاصرة عن إدراك جلاله المطلق، وكل ما نقوله من ثناء لا يصل إلى حقيقته، فهو المنزه عن أن يدركه الفكر أو تحيط به الأوصاف، فهذا القول تنزيه لله عن قصور المخلوقين عن إدراكه ومدحه بالكمال .

ونجد البعد التربوي الاخلاقي من خلال محاربته للتمسك بالدنيا ومحاربة الهوى وطول الأمل:

حيث قال (عليه السلام): "أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة."

إذ يركز على أن الأمل يسهي العقل ويُنسي الذكر، ويجب أن نكذبه، فمن أطال الأمل أساء العمل، وهذا تعليم مباشر للتحكم بالشهوات والميول النفسية.

فالبعد الأخلاقي والتربوي في نهج البلاغة كمنهج متكامل يهدف لتهذيب النفس وقيادة المجتمع نحو الكمال الإنساني، وهذا يظهر في الخطب والحكم والوصايا التي تضع أسسًا عملية للحياة الفاضلة .

وهكذا بقية الأبعاد الأخرى، فكتاب نهج البلاغة رغم أنَّه يشمل علوم الأدب والبلاغة العربية بأعلى أوصافها، إلا أنَّه كتاب معرفي يمثل منهجاً واضحاً لكل من طلب الحق والحقيقة.

خامسًا: الفرق بين دراسة نهج البلاغة وشرح نهج البلاغة.

من الأخطاء الشائعة الخلط بين مرحلتين مختلفتين:

مرحلة "دراسة نهج البلاغة" (المدخل والتأسيس).

١- التعريف بالكتاب (جامعه، مصادره، تاريخه).
٢- فهم بنية الكتاب وطبيعة نصوصه.
٣- ضبط المصطلحات والمفاهيم المركزية (مثل: التقوى، العدل، العقل).
٤- معرفة مناهج القراءة والتفسير المتبعة.

٥- تحديد الأبعاد الفكرية للنص.
٦- الهدف: تكوين الخريطة المعرفية الشاملة.

مرحلة "شرح نهج البلاغة" (التطبيق والتحليل).

١- تحليل نصّ خطبة أو رسالة محددة.
٢- شرح المفردات والتراكيب اللغوية غريب الألفاظ.
٣- بيان المعاني التفصيلية والإشارات الدقيقة.
٤- ربط النص بسياقه التاريخي والسبب النزول.
٥- مناقشة آراء الشرّاح المختلفة في نقطة ما.
٦- الهدف: السير في تفاصيل الخريطة واستكشاف موقع محدد.

الخلل المنهجي: يقع عندما يبدأ الدارس مباشرة بشرح النصوص دون أن يكون قد امتلك الخريطة الكلية (المدخل)، فيضيع في التفاصيل ولا يربطها بالإطار العام.

سادسًا: سبب استقلال نهج البلاغة كمادة علمية.

إن استقلال نهج البلاغة بالدراسة راجع إلى عدة أسباب:

١- مكانة الإمام علي العلمية والروحية.

٢- تأثير الكتاب في التراث الإسلامي.

٣- غنى النص وتعدّد مستوياته.

٤- كثرة الشروح والدراسات حوله.

٥- قابليته للتوظيف في مجالات متعددة.

تبيّن من خلال ما تقدم، أن نهج البلاغة ليس مجرد كتاب مواعظ أو نصوص أدبية، بل هو مشروع فكري متكامل، يستدعي دراسة تمهيدية واعية قبل الخوض في نصوصه. وهذا ما يهدف إليه "المدخل إلى نهج البلاغة" بوصفه علمًا تأسيسيًا يُعدّ الدارس لفهم أعمق وأدق لهذا التراث العلوي العظيم.